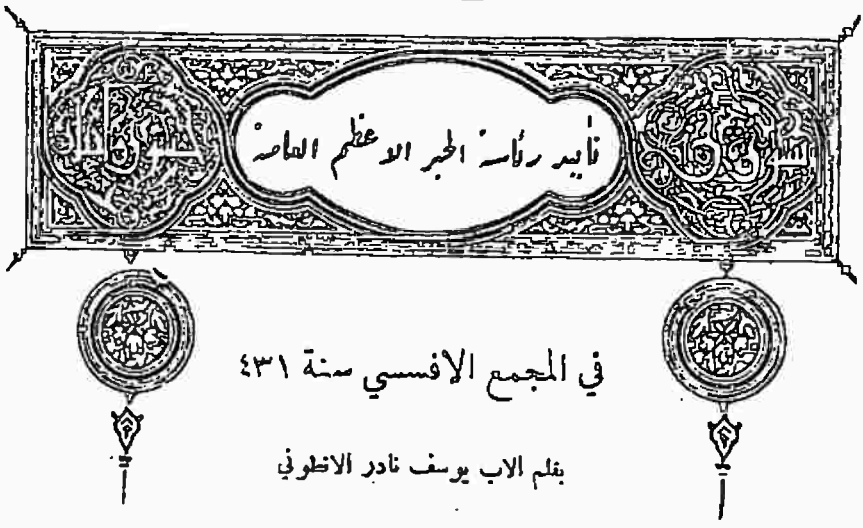

في المجمع الافسسي سنة ٤٣١

بقلم الاب يوسف نادر الانطوني

سبقنا وذكرنا على صفحات « مشرق » السنة الحالية (ص٦١٢ ؛ ٧٢٩) كيف خرجت الكنيسة مكللة بالنجاح في المجمع الافسسي ، رغم الامراء والعساكر المدافعين عن النفاق . والآن يلذ لنا ان نعتبر مسألة اخرى لا تقل اهمية وصراحة عن انتصار امنا الكنيسة في المجمع المسكوني الثالث الا وهي تأييد رئاسة الحبر الاعظم العامة.

لقد ظهرت رئاسة الحبر الروماني في المجمع الافسسي مؤيدة بمزيد البهاء والعظمة .

سبق المؤمنون في القسطنطينية وبرهنوا عن روح مسيحي حقيقي اصدق من روح اسقفهم ، قبل ان يطّلع البابا على البدعة الجديدة ويقبحها بسلطانه الاسمى؛ فهبَّ الشعب الحسن العبادة بحمولًا بشعور الايمان الحي وجاهر بالمعنى الحقيقي للعقائد الالهية ، وميّزها عما يعاكسها من التعاليم الكفرية المستحدثة . ولهذا السبب نفر من نسطور راعيه بقوة غريزية فائقة الطبيعة ، ولم يخشَ ان يُظهر شدة سروره لبروقلوس المجاهر امام نسطور نفسه بسرّ التجسد ؛ ويستهزئ بشروح نسطور الملتبكة . وقد حدث الشيء عينه في مدينة افسس ، مساء الـ ٢٢ من حزيران ، اذ علم الشعب المؤمن بخزي البطريرك الكافر ؛ ولشدة حرارة ايمانه ، ملأ شوارع المدينة فرحاً وهتافاً منادياً : « يا ام الله ! يا أم الله ! »

فهذه الحوادث وما شاكلها حملت علماء اللاهوت النظري على أن يضعوا مبدءاً عاماً بهذا الصدد قوامه ان الشعب المسيحي يقدر بنعمة سماوية خاصة ان يشعر بالمعنى الحقيقي المتعلق بالعقائد الدينية — وان كان لا يخصه تحديدها — ويميزها بعض التمييز عن الاضاليل المناقضة لها ؛ كما ان السلطة الكنسية العليا هي الحارسة الرسمية لجميع التعاليم الايمانية والادبية ، والمفترة الصادقة المعصومة من الغلط بشأنها .

لكن بجانب صوت الشعب المسيحي المطوّب والدة الله المجيدة ، قد سُمع في افسس صوتٌ آخر شجب البدعة النسطورية شجباً مطلقاً اجتفالياً . وقد رددت المسكونة باجمعها صداه العظيم ، الا وهو صوت البابا مار شلستينوس المعصوم من الغلط ، وقد بادر لسماعه الرعاة ورعاياهم العديدة .

ان مؤرخي المجمع من شرقيين وغربيين قد بيّنوا بالحاح الدور الاول الذي قام به مار شلستينوس في هذه المسألة . فهو سبق وحرم نسطور وبدعته ؛ وكلّف مار كيريلس تنفيذ حكمه الرسولي .

ان العلّامة بوصويت[1] قد احسن اعتبار هذا الموضوع ببلاغته الفتّانة . قال :

« ان في المجمع الافسسي ظرفين مهمين للغاية :

« اولها ان البابا حكم بسلطة مطلقة جداً ؛ لانه كتب الى مار كيريلس بهذه العبارة : « إنكم بسلطان كرسينا ، وقائمين مقامنا ، تنفذون هذا الحكم بقساوة يعتبر بها . » ان شلستينوس يحكم وكيريلس ينفذ ، وينفذ بسلطة ، لانه يتصرّف بسلطان الكرسي الروماني . وما كتبه الى نسطور لا يقل قوةً ، اذ يُثبت ايمان مار كيريلس ومن ثَمّة يأمر نسطور بأن يطيع التعليم الذي سيلقّنه اياه كيريلس تحت عقاب الحطّ .

« والظرف الآخر هو ان جميع اساقفة الكنيسة اليونانية كانوا مستعدّين للخضوع . فسلطة هكذا عظيمة مباشرة في الكنيسة اليونانية ، وضدّ احد

---

(1) Bossuet, *Rem. sur l'Hist. des Conciles d'Ephèse et de Chalcédoine. Ch. I.. Rem. 2 et 3.*

بطاركة القسطنطينية ، تصوّر لنا بلا ريب فكرًا كبيرًا بشأن سلطة البابا . انه لقد ظهر رئيس جميع البطاركة : فحطّ بطريرك القسطنطينية ، وشرّف بطريرك الاسكندرية بتنفيذ الحكم . اما البطريرك الانطاكي فلم تخطر على باله قط المخالفة ، وان كان صديق نسطور . ومن الرأي نفسه كان يوفنال البطريرك الاورشليمي. فشلستينوس يصدر اوامره لهم ولسائر اساقفة الكنيسة اليونانية ، وينفّذ حكمه دون مناقضة . . . »

ومن حطّ نسطور من مقامه البطريركي السامي ؟ ليس مسار كيريلس من تلقاء نفسه ، لان هذا العمل يفوق سلطته الاعتيادية ؛ كما يكتمل بوضوح ايضاح البرهان السابق زائدًا « للبابا وحده يحقّ هذا السلطان : ليس من سلطان كيريلس ولا بطريرك آخر حُطّ نسطور الذي لم يكن خاضعًا لهما . ان البابا وحده قد فعل ذلك ولم يخالفه احد بهذا الشأن ، لان سلطانه يعم الجميع .

حين تجاسر يوحنا الانطاكي مع مجمعه وحطّ كيريلس وممنون ، استقف افسس ، ذُمّ ليس فقط لانه اصدر حكمًا ضد اسقف من اساقفة اكبر الكراسي — هذا ما يخصّ كيريلس البطريرك الاسكندري — بل ايضًا لانه حط اسقفين ليس له عليهما ادنى سلطة — وهذا يخصّ كيريلس وممنون معًا (من اعمال الجلسة الرابعة والخامسة) .

فهذان تعدّيان من شأنهما قلب النظام الكنسي باسره حسب قول المجمع الافسسي ؛ لكن حين يحكم البابا خاصة في مادة هرطقة ضدّ أيّ اسقف كان وايّ كرسي منصوب عليه ، كل واحد يخضع ولا يرى له سبيلًا للمعاكسة . فهذا دليل ساطع على ان الجميع يعترفون بان الحبر الروماني هو الرئيس العام على الكنيسة . »

حقًا ان تاريخ المجمع الافسسي يقدّم لنا افصح برهان وابلغ مثل بشأن سلطة الحبر الروماني العامة الشرفية والفعلية معًا ، التعليمية والتأديبية كما خوّلها السيد المسيح لبطرس ولخلفائه الشرعيين . ومصداقًا لما ذكرناه ، فلنسمع الخطاب النفيس الذي لفظه الكاهن الروماني فيلبوس [1] في الجلسة الثالثة . قال : « ان

(1) Denziger, n° 112

هذا الامر لا يرتاب به احد ، بل بالاحرى معروف لدى جميع الاجيال ان القديس بطرس الكلي الطوبى زعيم الرسل وهامتهم ، عمود الايمان واساس الكنيسة الكاثوليكية قد استلم مفاتيح الملكوت من ربنا يسوع المسيح مخلص الجنس البشري وفاديه ، وله أعطيت سلطة حلّ وربط الخطايا . وهو يحيا ويقضي الى الآن ودائماً في خلفائه . »

ما اجمل هذا التصريح الذي فاه به في الشرق احد الممثلين الحبريين ، وفيه صدى قول جميع الآباء الاطهار بشأن الرئاسة البطرسية العامة !

رغماً من الحوادث العسرة او المحزنة التي سبقت التئام المجمع الافسسي ، ورافقته ، ولحقته ، قد تلألأ بهاء هذا المجمع ، وسطعت سلطته بكونه عُقد باسم الحبر الاعظم ، وتصدّر جلساته القانونية القديس كيريلس قائماً مقام البابا ، وقد بيّن الممثلون الرومانيون السامون سلطان الكرسي الرسولي الروماني العام .

هكذا دبّر الروح القدس باشعة انواره القدسية عروسه الكنيسة الكاثوليكية من المؤمنين السُذَّج الى رئيس الرعاة الاعلى ؛ وجعل السفينة البطرسية تمخر بين عباب البدعة النسطورية بزيد الثقة والطمأنينة . وفي عصرنا هذا كما في العصور الغابرة ، لم يزل هذا الروح القدس نفسه يدير الكنيسة ، ورأسها الاعلى الاب الاقدس المالك سعيداً . هذا هو سبب تعزيتنا على الارض ، وامالنا الاكيد بالحياة الابدية .